منشأ اللغات

اختلف الباحثون من الملبين وغيرهم قديماً وحديثاً في مأخذ اللغات على أقوال :

فقال قائلون انها توقيف من الله تعالى . وفسر بعض هؤلاء ذلك بالوحي وبعضهم بالإلهام والإقدار وبعضهم بالأمرين .

وقال آخرون انها من وضع البشر . وفسر بعضهم ذلك بمواضعة حكماء البشر على اختراع أصوات خاصة يتفاهمون بها ، وتابعهم في ذلك العامة . وبعضهم باشتراك أفراد الناس في ارتجال بعض الألفاظ . ولقن غيرهم عنهم من غير سابقة اتفاق . وبعضهم بالتدرج في بناء الألفاظ من محاكاة أصوات الحيوان وتفاعل قوى الطبيعة بحرف او حرفين الى التزيد بالتكرير والملحقات والقلب والتبديل .

وقال قوم بالتوفيق بين الأمرين بالتوقيف من الله بمعنى الإلهام والإقدار على الارتجال احياناً ، و بالوضع بالقصد الى محاكاة الأصوات منه ومن غيره وتعديلها أحياناً .

وعلى هذا الرأي جمهور المحققين من الملبين وغيرهم .

وتفصيله ان الانسان كسائر الحيوان مفطور على ان يعبر عن انفعالاته النفسية باصوات مختلفة ، فانا نسمع الهرة مثلاً تموء بضعة أصوات مختلفة تظهر بها بإلهام من الله انفعالاتها ومطالبها ، فصوت الاستعطاء والاستعطاف غير صوت الزجر والغضب الخ . وشأن الانسان الناطق بالطبع في ذلك ليس أقل من شأن الحيوان الأعجم بما ركب فيه من قوة الارادة والتمييز ، وما أودع أداة صوته من الموهبة العظيمة التي جعلته يحكي كل صوت و ينوعه حروفاً منطقية ، فبالقدرة على الحكاية أمكنه ان يعبر عن المعاني المشعرة بها الأصوات الفطرية في نفسه وغيره بمحاكاتها بالحروف الشبيهة بها كما تفعل الببغاء التي هي دون الانسان في الادراك ، وبطبيعة القوة الناطقة التي أودعها الله اياه وميزه بها على سائر الحيوان أمكنه إرتجال بعض ألفاظ يعبر بها عن رغائبه القليلة في بدء نشأته ثم تولد عنها غيرها .

فيتصور انه عندما كان يجيش صدره باظهار رغبة او رهبة يصيح بصوت معين بصورة ما ، فيسمعه غيره و يفهم منه مراده باضافة قرينة حال او إشارة كما نشاهد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ذلك كثيراً في بعض الأطفال عند محاولتها النطق ، فاذا وجد انه أدى غرضه استعمله ثانية وثالثة في افهام رفقائه ، فيذاع بينهم و يعرف ، ولا يحتاج في استعماله الى قرينة ، وهكذا يفعل غيره فعله و يقلدهما ثالث ورابع حتى تتكون من هذه الالفاظ المرتجلة والمحكية اللغة الاولى الضرورية للبيئة التي يعيشون فيها ، و يتفق عليها طبيعة من غير تعمل ولا قصد الى الاتفاق . ثم تتسع هذه اللغة بعوامل النمو المعروفة من نوع الوضع وتشعب الألفاظ بتشعب المعاني الكلية الى معانٍ جزئية ، ومن الاشتقاق والقلب والابدال والزيادة والنقص والنحت والتحويل من الحقيقة الى المجاز ، فيشتهر المجاز ثم يصير حقيقة . والتجوز في اللفظ قد يكون من عمل المرء وحده ، او من عمل طائفة معه راقية تحاول علماً او صناعة وتضع لمعانيها وأدواتها مصطلحات تشتهر وتصير حقيقة عرفية .

هذا وقد اختلف الحكماء فيما نطق به الانسان ابتداء ، فقال قوم انه نطق اولاً بالاصوات الدالة على الانفعالات الوجدانية كالتأوه والأنين والتأفف والقهقهة وأصوات الزجر والغضب والخوف . ثم كان يستعمل للمحسوسات الاشارة باليد وتزوية الوجه قياساً على الحركات في ذلك . ثم وضع ألفاظ المحسوسات بالحكاية او الارتجال . ثم الالفاظ الدالة على حركة النفس الفكرية . وقال قوم انه ابتدأ بالاشارة الى المحسوسات ثم الوجدانيات ثم العقليات . والظاهر تساوي مرتبة الوجدانيات الفطرية ووضع اسماء المحسوسات ، وتأخر مرتبة العقليات في الوجود ، بحتى لترى جميع لغات البشر عاجزة عن التعبير عن كثير من المعاني التي تخالج النفس بل عن كثير من معاني المحسوسات كالفرق بين الروائح والطعوم .

ثم اختلفوا ايضاً في اي أقسام الكلام وضع ابتداء ، فقيل اسماء المفردات والمصادر ثم الافعال ، ونحت من كليهما اسماء الضمائر والاشارة والموصولات والحروف ، وقيل الأفعال ثم الاسماء الخ .

واذا قسنا نشأة النوع الانساني على نشأة الطفل كما يقول جمهور حكماء العصر فقد لحظنا في الأطفال الذين عنينا بتربيتهم انهم نطقوا بالاسماء الدالة على رغائبهم الفطرية وبعض المحسوسات المحيطة بهم ، ثم نطقوا باسماء المصادر ، ثم تلتها الافعال ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وسبق المضارع فيها اخويه الماضي والامر . ثم ببعض اسماء الاشارة وجاءت الضمائر والموصولات والحروف متأخرة وتلتها بقية المشتقات . ويؤيد هذا كثير من الحكايات التي تروى عن الامم المتوحشة بافريقية وجزائر المحيط الأعظم .

وكل ماذكرناه يقرب الى الذهن تصور نشأة اللغة الاولى للانسان . اما اللغات المتفرعة منها ثم من أنفسها فتنشأ من هجرة بعض طوائف اهل اللسان الاصلي الى جهات متباعدة فيدفعهم التقاطع الى نسيان بعض الكلمات لعدم استعمالها في وطنهم الجديد والى تحريفها على طول الزمان ، ثم يرون في هذا الوطن ما لم يروه من قبل من أنواع الحيوان والنبات والجماد فيضطرون الى وضع كلمات على الوجه الآنف الذكر وهكذا ، فتتباعد اللغة الفرعية عن الأصلية كما تباعد الزمان والمكان ، ويزيد مدى التباعد اذا جاوروا أمما تتكلم بغير لسانهم فيستعيرون من لغاتهم كلمات تتمثل بعد حين في بنية لغتها ، ثم اذا طال الأمد على أهل لغة وكثر عددهم وارتقت الصفات الانسانية فيهم اتسعت هذه وتعددت أساليب التعبير فيها وضاق حفظ اي فرد من علمائها عن ان يحيط بها .

القاهرة : احمد الاسكندري
عضو المجمع العلمي العربي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net